معوقات الانتقال الديموغرافي في العالم العربي
خلال القرن 18م المغرب نموذجا

د. عبد الحميد حدوش

مقدمة

ستنصب هذه مداخلة على دراسة عوامل الهدر الديموغرافي بالعالم العربي دراسة تتوخى أن تكون شاملة وعميقة، مع تكميم واضح المعالم لحصيلتها الديموغرافية، ثم رصد توزعاتها الجغرافية، مع التركيز على المغرب كنموذج خلال القرن 18م في أفق تحديد العوامل التي أخرت الانتقال الديموغرافي بالمغرب انطلاقا من الإجابة على الأسئلة الآتية:

1- ماهو حجم الهدر الناجم عن أزمات الأقوات بالمغرب خلال القرن 18م؟ وما هو السياق الذي حدثت فيه؟

2- ماهي طبيعة الأزمة الديموغرافية التي تكشف عنها حدة ومجالية وباء الطاعون؟

3- هل أدت دورية الأمراض الوبائية وأزمات الأقوات وبقية عوامل الهدر إلى حدوث استرخاء ديموغرافي؟ أم أن ميكانيزم التعويض حال بسرعة دون حدوث خلل سكاني؟

4- إلى أي حد مثلت عوامل الهدر على اختلاف أنواعها عوائق حالت دون حدوث ثورة ديموغرافية عبر امتصاص الفائض البشري عن طريق سلسلة من أزمات الوفاة؟

5 – وإلى أي حد تسعفنا المعطيات الرقمية والكيفية المتوفرة في المصادر المغربية والكتابات الأجنبية من الإجابة عن هذه الأسئلة، مع التأكيد بأنه عمل لا يخلو من صعوبات وإكراهات[1] .

1- التعريف بمعوقات الانتقال الديموغرافي

لعل عنوان المداخلة ينفتح على عدة خيارات أثناء المعالجة إلا أن مساهمتنا ستقارب الموضوع من مدخل ورؤية ديموغرافية –تاريخية، وعليه تأخذ المعوقات مرادفا لها:عوامل الهدر الديموغراقية، فما المقصود به؟ ولماذا وكيف أخرت الانتقال الديموغرافي في العالم العربي إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية؟

إن عوامل الهدر الديموغرافية هي تلك الفواجع الناتجة عن الطبيعة والإنسان والتي تحدث قطائع فجائية في السيرورة السكانية وأضرار مادية جسيمة، وهي عبارة عن قوى خارجية تحطم احتياطات الثروة، وتدمر قوى الإنتاج، وتشل المبادلات التجارية. إنها كوارث أثبتتها الوثائق ودونتها المصادر ورتبتها حسب درجة خطورتها إلى ثلاثة أصناف: الأوبئة، أزمات الأقوات، الحروب. ولا تقتصر عوامل الهدر على هذا الثلاثي، بل تشتمل

[1] - صعوبات البحث في الديموغرافية التاريخية عديدة ومتعددة ويمكن جمعها في: عوائق منهجية وأخرى مصدرية:

– شح المادة المصدرية ذلك أن الكتابات التاريخية على مر العصور قديمها ووسيطها وحديثها بل والمعاصر منها، منح الأولوية للحدث السياسي مهمشة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وبالأخص منها المواضيع الديموغرافية.

– صعوبة التكميم بالنظر إلى قلة المعطيات الرقمية في المصادر على اختلاف أنواعها، بدء بعدد السكان ونسبة الكثافة السكانية ومعدل الخصوبة والبنية العمرية للساكنة ومؤشرات الزواج والطلاق ومعدلات الوفاة وتدفقات الهجرات وغيرها من المؤشرات التي يحتاجها البحث الديموغرافي، وأقصى ما توفره المصادر أرقام تفتقد للمصداقية وفي الغالب تستعمل عبارات ديموغرافية لا توجد وحدة قياس تقابلها على المستوى الرقمي وهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، " خلق كثير"، "عدد لايحصيه إلا الله"، "جم غفير". . .

– نتائج مجتزءة: بما أن المادة التاريخية المستخلصة من الكتب الإخبارية وكتب الرحلات والنوازل والتراجم والمناقب وغيرها، تتميز بالتقطع المجالي والزماني، بحيث يصعب تحديد جغرافية الكارثة، الشيء الذي يحول دون الرصد الجيد للنتائج ومن ثم الإجابة عن الأسئلة المطروحة وبالتالي تأكيد الفروض أو نفيها.

لائحة الكوارث الطبيعية: الزلازل والعواصف والسيول والجراد ... وتعد الفجائية أبـــرز مميزاتها.

إلا أن هذا التنوع في مكونات الكوارث الطبيعية يتوحد في نتيجته التي هي الهـــدر الديموغرافي الذي حال دون حدوث ثورة ديموغرافية/ الانتقال الديموغرافي، فما مـــساهمة أزمة الأقوات والموجات الطاعونية في" انهيار" أو عرقلة النمو الديموغرافي بالمغرب خلال القرن 18م؟

2- معوقات الانتقال الديموغرافي في منظور الإسطوغرافية المغربية خلال القرن18م

لا يخلو قرن من تاريخ المغرب الحديث على الأقل ،إلا وتسجل فيه الحوليات المغربية وقوع مجاعة أو قلة قوت لدرجة أصبحت خاصية ملازمة لها، ولعل في هذا ما يعكـــس هول الآفة التي ظل سيفها مسلطا على الساكنة بمختلف شرائحها الاجتماعيـــة، وعلـــى وجه الخصوص الساكنة الحضرية. فما هو الحيز الذي خصصته الإســـطوغرافية المغربيـــة لأزمة الأقوات؟ وكيف فسرت ظاهرة المجاعة؟ وماهي الحصيلة الديموغرافية التي رصدتها لمجاعات القرن 18م؟

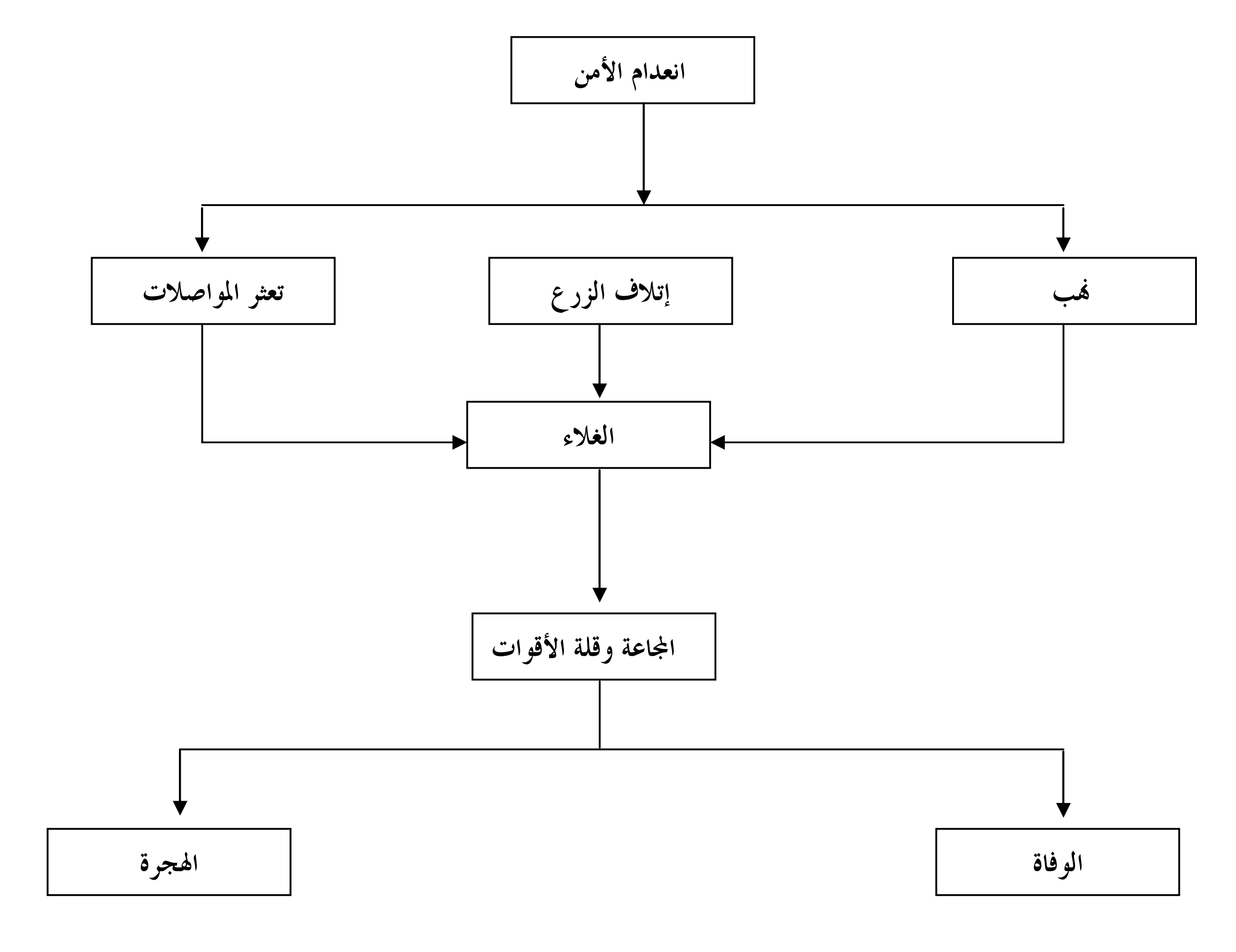
أقترح إجابة مركزة من خلال استعراض خطاطات مستقاة من ثلاثـــة مـــصادر تاريخية مغربية، تبين آلية الهدر الديموغرافي بالمغرب في القرن 18م.والتي أفترض أنها حالت دون توفر فائض سكاني يسمح بإقلاع ديموغرافي على غرار ما كان يحدث في دول اروبا الغربية.

أ- النماذج التفسيرية لمعوقات الانتقال الديموغرافي بالمغرب بفعل أزمة الأقوات:

- نموذج تفسيري للمؤرخ القادري من خلال كتاب نشر المثاني[2]

[2] – **القادري محمد بن الطيب**، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق، مكتبـــة الطالب، الرباط 1986،ج.3 و4.

نموذج تفسيري لأزمة الأقوات عند القادري



تعليق:

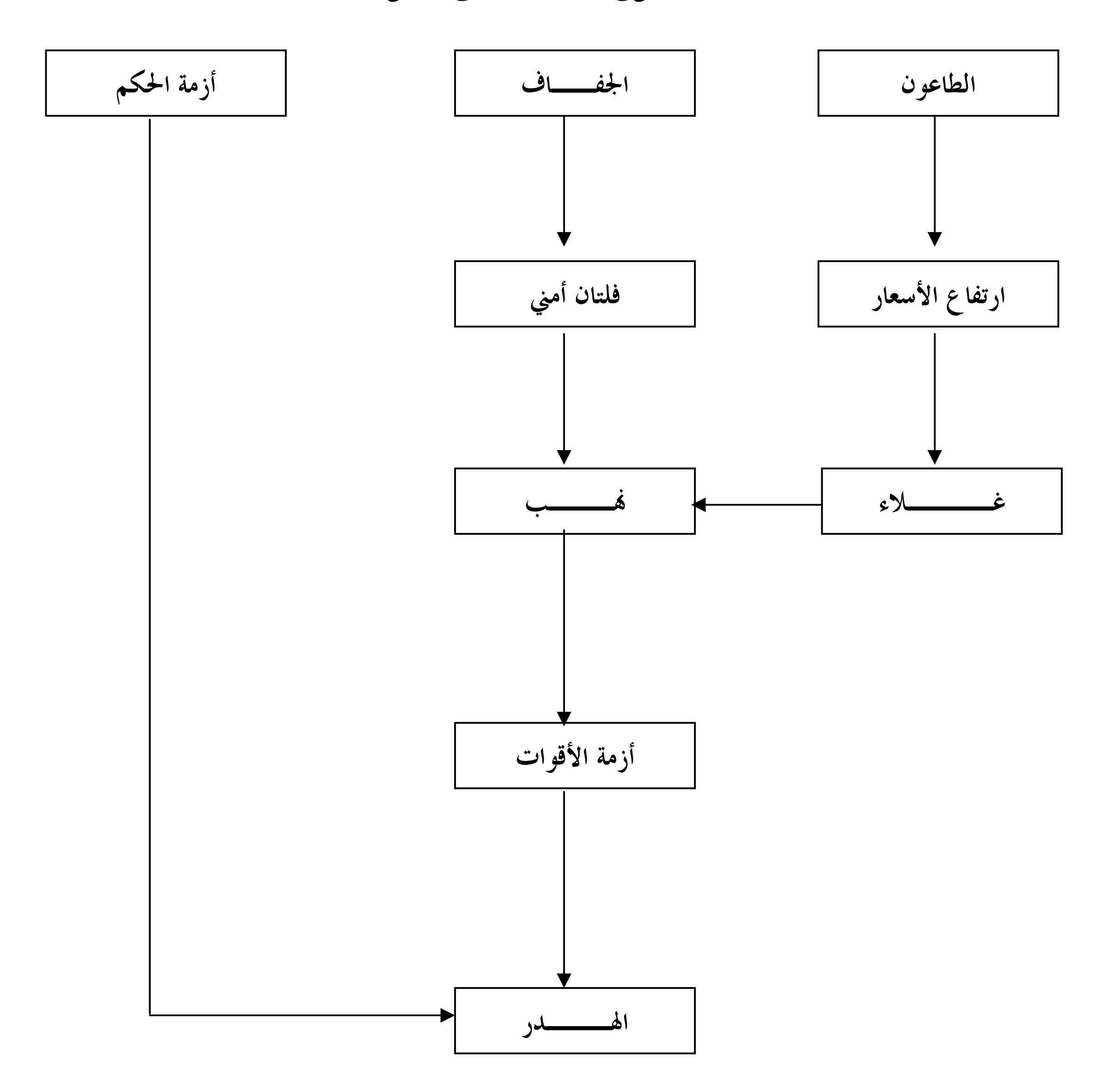
يقارب القادري ظروف نشأة أزمة الوفاة بالمغرب من الزاوية السياسية، ذلك أن ظروف المغرب المضطربة أثناء الصراع على السلطة عقب وفاة المولى إسماعيل والذي دام 30سنة (1727- 1757م)، و أدى إلى انعدام الأمن وتفشي اللصوصية في المدن ونهب وإتلاف الزرع والضرع في البوادي وتعثر المواصلات. فالتهبت الأسعار وقلت الأقوات وبرزت وفيات المجاعة.[3]

[3] - يشترط باردي (Bardet) ودوباكيي لكي يكون للغلاء مفعول على حجم الساكنة، أن تتجاوز نسبته 44% من معدل الأسعار .

Bardet, J.P., et Dupaquier J. Histoire des populations de l'Europe, Librairie Artheme Fayard, 1997 T.1 . p. 315.

- نموذج تفسيري للمؤرخ الرباطي من خلال كتاب الضعيف[4]

خطاطة تجسد تصور الضعيف لأزمة القوت



يرجع الضعيف الهدر الديموغرافي الذي لحق ساكنة المغرب طيلة الصراع على الحكم، إلى أزمة الأقوات التي نتجت عن الغلاء وهي الظاهرة المنبثقة عن الوضعية الأمنية

4 - الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي، تاريخ الضعيف، تحقيق محمد البوزيدي الشيحي، دار الثقافة الدار البيضاء 1988. ج.1.

المتدهورة والظرفية المناخية السيئة وانتشار الوباء القاتل مما جعل الساكنة عرضة لأزمـــة مركبة[5].

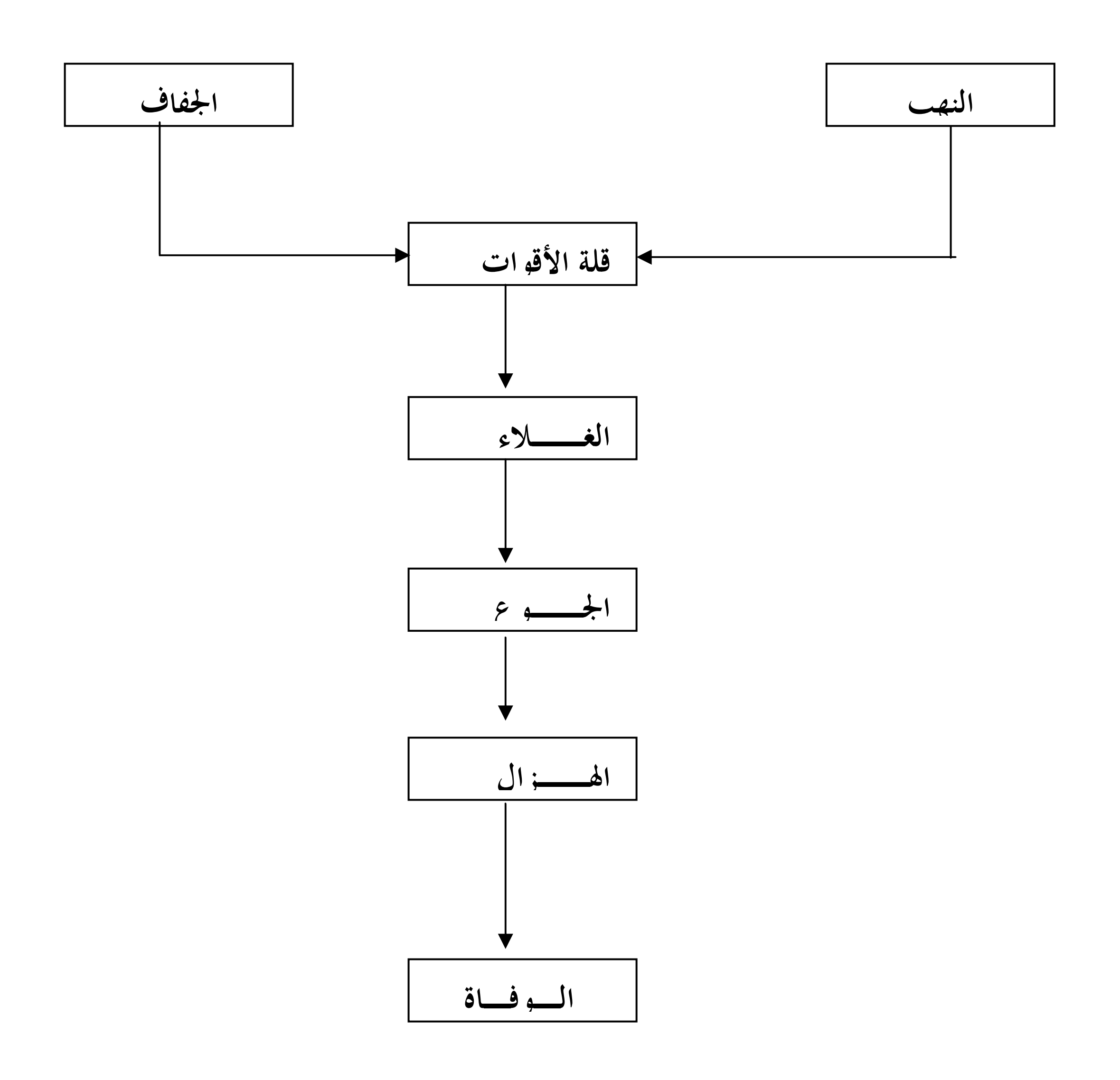
- نموذج تفسيري للمؤرخ الناصري من خلال كتاب الاستقصا[6]

خطاطة تركيبية لوسائل الهدر اليموغرافي في كتاب الاستقصا.

[5] – يشترك فيها مفعول المجاعة والطاعون على وجه الخصوص ويسهل حصر ملامحها كلما كانت كرونولوجيا الطواعين معروفة إذ تساعد على تفسير مستويات الوفاة القصوى. ففي هذا النوع تكون الأزمة قصيرة ومحـــددة ولا تـــؤثر في متغيرة الولادة. إن الأمر يتوقف على طبيعة المرض ومدته وكذا الفئة العمرية المستهدفة، لكن المفاجأة تأتي من تزامن الغلاء والوباء، وهو تطابق لا يمكن اعتباره وليد الصدفة، بل يجب علينا دمج العاملين، ولعل علاقة مجاعة/وباء هـــي الحالة الأكثر تمثيلا لأزمة الوفاة.

- Lachiver (Macel), Les années de la misére, la famine au temps du grand roi 1680 -1720, Fayard, Paris 1991, p. 89.

[6] – **الناصري أحمد**، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمـــد الناصـــري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1956. ج7



تعليق:

تشتغل آلية الهدر عند الناصري بطريقتين، إحداهما سياسية والثانية طبيعية، ذلك أن الفلتان الأمني وانتشار العنف في ظل الجفاف يتسببان مباشرة في ندرة الإنتاج وقلة العرض، لهذا ترتفع الأسعار ويسود الهزال في أوساط العوام والمجاعة المميتة.

ب- كرونولوجيا ومجالية وحصيلة هدر أزمة الأقوات

- كرونولوجيا ومجالية المجاعات بالمغرب

لم تسلم بلاد المغرب عبر التاريخ من القحوط والمجاعات، ففي إحدى الدراسات حصر البزاز في جدول عشرون (20) مجاعة حدثت بالمغرب ما بين منتصف القرن 9 و نهاية القرن 15 م، بمعدل مجاعة في 28 سنة، أو 3 إلى 4 مجاعات في القرن، وميز بين ثلاث مستويات زمنية لتكرار المجاعات:

المدى القصيرمن 3 إلى 18 سنة،

المدى المتوسط ويمتد من 25 إلى 37 سنة،

المدى الطويل وفيه تحدث المجاعة على بعد 52 إلى 82 سنة. [7]

أما مجاعات جزء من الفترة التي نحن بصدد دراستها، أوجزناها في الجدول التالي:

أزمات الأقوات بالمغرب مابين 1720 و1750م

الفترة	المدة بالسنة	المجال
1721-1724م	4	وطنية
1729م	-	الريف
1733-1734م	2	وطنية
1736-1738م	3	وطنية
1749-1750م	1	وطنية

شهد المغرب في النصف الأول من القرن18 م أربع مجاعات استغرقت مددا زمنية متباينة وشملت مجالات جغرافية متفاوتة، أربعة منها وطنية (أي 90%) ،عانت الساكنة في مجموعها عشر سنوات من الجوع، والبقية كانت محلية أوجهوية، قصيرة الأمد بحيث لم تتجاوز سنة واحدة.

[7] – البزاز (محمد الأمين)، حول المجاعات والأوبئة خلال العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد18، ص. 96 نقلا عن أسكان (الحسين)، المجاعات والأوبئة خلال العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب، الجديدة، سلسلة ندوات ومناظرات، عدد4، ص. 135.

وترجع أسبابها في الغالب إلى عوامل ميترولوجية وبشرية، وهي أزمات عشوائية لا يوجد خط زمني ناظم لها إذا نظرنا إليها من الزاوية الكرونولوجية، بحيث نجد أن مجاعات النصف الأول في المغرب من القرن 18م تفصل بينها مددا زمنية تارة قصيرة (سنتان) مما يؤهلها إلى أن تخلف هدرا قويا على الساكنة، وطورا تتباعد (أكثر من عشرين سنة)، بل لم يشهد النصف الثاني من القرن سوى مجاعة واحدة كبرى، ولن يتكرر تأثر الساكنة بأزمة الأقوات إلا في الربع الأول من القرن 19م (مجاعة 1825م).

وتبين كرونولوجيا المجاعات في المغرب حجم الدمار الذي لحق بالأسس المادية للفلاحة والخلل الذي كان يشوش على إيقاعاتها الموسمية ، ومن ثمة على حجم ووفرة الغذاء.وإذا ما أردنا أن نقوم مدى مساهمة أزمة الأقوات كمنظم للتوازن الديموغرافي لقلنا أن دور المجاعات بات مؤكدا في طرفي معادلة الدينامية السكانية: سواء كعامل نمو سكاني أو عنصر تشويش وإعاقة لمتغيرة الوفاة رغم افتقاد الباحث لمعطيات رقمية كافية تدعم هذه النتيجة. وعليه، ما يمكن استنتاجه من الجرد المذكور، أن أزمات الأقوات لم تكن قادرة على أن تؤثر سلبا وبعمق في تزايد الساكنة، إذ من شأن ذلك افتراض وجود وثائر وفاة منتظمة عادية وحتمية، معززة بأرقام وهو ماتفتقده المصادر.

د- صعوبة تكميم وفيات أزمات الأقوات

إذا كانت المصادر المغربية تساعد على ضبط زمن وجغرافية المجاعات، فإنها تفتقر إلى التكميم، وهو المعطى الأساسي لتقييم وقياس نسبة الهدر الديموغرافي، ومن ثم تحديد خصائص نظامنا الديموغرافي. صحيح إنها لا تخلو من قياسات نوعية نستشهد ببعض منها: كالهلاك" هلكت رقاب أو بلغت الوفيات قامتين" أو الموتان" دخل الموتان... وكان مات فيها خلق من ذلك " أو السنة الشهباء التي" مات فيها عدد كبير من الآدمي والدواب جوعا"، أو الحديث عن " قوة الخلا "، أو الإشارة الضمنية التي تفيد أن أزمة الوفاة كانت صلتها وثيقة بالعمران، إذ تحولت رحبة إلى مقبرة بفاس "رحبة الزبيب من

عدوة فاس القرويين ... صارت الآن –1146هـ/1733م– مدفنا على عـادة الأضـرحة المتبرك بها بفاس".[8]

وحينما تخرج الوفاة عن المألوف تعبر المصادر عن ذلك بقيم كيفية تـدل علـى الكثرة لقد "عجزت الناس عن دفن موتاهم وكانوا يرمونهم في الأزقة والمزابـل وغـير ذلك".[9]

إلا أنه يصعب توظيف هاته العبارات / العيارات توظيفا إجرائيا للتعبير عن حجم الخسائر البشرية التي ترتبت عن أزمة الأقوات بالمغرب. وفي غياب إحصاء عام ودقيـق للسكان، قدرنا نسبة الهدر بفاس ومكناس التي اكتملت معطياتهما على النحو التالي:

قدر برايتوايت (Braithwait) ساكنة مدينة مكناس بثلاثمائة ألف نسمة.[10] وبـنفس العدد قدر وندوس في رحلته التي قام بها إلى المغرب سنة1721م، ساكنة فاس.[11]

وإذا سلمنا بأن عدد وفيات مجاعة 1149هـ بمكناس حسب القادري كان أكثر من 89000 وفاة، يضاف لهم " الذين كفنهم أهلهم وعشيرتهم"[12]

ستكون نسبة الهدر 29,66%. وهي النسبة التي تتطابق مع مـا يوجـد في وثـائق الأرشيف البريطاني.[13] ولعلها نسبة هدر معقولة.

---

[8] – نفسه ص361- . لعل الاهتمام بديموغرافية المقابر من شأنه أن يوضح أكثر ظاهرة الوفاة في تاريخ ساكنة المغرب

[9] – معيار كيفي وظفه الضعيف لتقييم وفيات مجاعة 1737، ج. 1 ص. 220.

[10] -Braithwait (Jhon), Histoire des révoltes de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier empreure Moulay Ismael, Amsterdam. P. Mortier, 1973, p. 145.

– استعمل طريقة خاصة به لتقدير ساكنة المدن، تقوم على قياس طول وعرض المدينة.

[11] – وندوس (جونس)، رحلة إلى مكناس، ترجمة زهرة إخوان، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، مكناس 1993، ص62.

[12] – الاستقصا... م. س. ج. 7ص. 145

[13] – بلغ هدر مجاعة 1150هـ –1737م. ثلث الساكنة وكان العبيد أكبر ضحايا هذه المجاعة، حيث انتقل عدد الفرسان من 50000 إلى 4 ألف أو 5 ألف فقط.

– الحيمر محمد، جيش العبيد والدولة المغربية منذ التأسيس إلى 1757م، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب بالرباط، السنة الجامعية 1996-1997. ص. 205.

ومهما يكن، فإنه من الصعب القيام بتحديد دقيق للمفعول السلبي لأزمة الأقوات على الوضع الديموغرافي، ذلك أن خطرها لا يظهر على السطح إبان المجاعات بينما نشاطها لا ينقطع فهو مستتر ومتواصل بفعل " قلة الأقوات "والتي تعكس منحنيات الأسعار أحد مظاهرها، كما نبه إلى ذلك موفري "إن سنة قلة الأقوات ... معطى دقيق... ما بعدها يسود مركب من البطالة الدائمة، وحالة الاقتراض اللامتناهي المؤدي إلى الإفلاس والمصادرة، واستمرار استغلال نفس المساحة من الأرض، لقد تأكد الدور الكبير لأسعار القمح في الهدر، لكن دون أن يصل إلى القتل المباشر والسريع، لا يحدث الهدر علنا، وإنما يتم بهدوء وبطء شديدين".[14]

2- هدر الطواعين أبرز معوقات الانتقال الديموغرافي بالعالم العربي:

باتت الساكنة في العالم العربي عامة والمغرب خاصة عرضة للأمراض الدورية ولاسيما الأمراض الوبائية وعلى رأسها موجات الطاعون خلال العصور الوسطى وطيلة الفترة الحديثة، كما تبين الجداول التالية:

أ-كرونولوجيا الهدر الديموغرافي بالأوبئة في المشرق العربي

- طواعين الخلافة الراشدة والدولة الأموية

[14] -Meuvret ,J., Les crises de subsistances et la démographie de la France d ancien régime, Population 1946, p. 650.

- وفيات الطواعين بالعالم الإسلامي من صدر الإسلام إلى بداية القرن العاشر الهجري:

إسم الطاعون	مكانه	تاريخه	خسائره الديموغرافية
طاعون شيروية	المدائن	6 هـــ /628 م.	لم يسفر عن وفيات فـــي صفــــــوف المسلمين[15]
طاعون عمواس	الشام- مابين القدس والرملة-	17 هـــ / 639م.	25000ضحية فيهم مشاهير الصحابة.[16]
طاعون الكوفة	الكوفة	49 هـــ /670 م	من 80 إلى 170 ألف
الطاعون الجارف	البصرة	70 هـــ /689م	213000 ضحية
طاعون الفتيات	البصرة	87 هـــ/ 707م.	وفيات في جنس الإناث من نساء وشابات وعذارى
طاعون البصرة	البصرة	131 هـــ /749م	ألف جنازة يوميا[17]

- طواعين الدولة العباسية:

مكان الطاعون	السنة	الهدر الديموغرافي- من خلال أقوال المطاعين. . م. س
البصرة	221 هـــ/ 836 م	مات فيه خلق كثير
الجذري بالموصل	423 هـــ/1032 م	4000 طفل
الموصل والجزيرة وبغداد	439 هـــ/ 1048 م	300 ألف وفاة سجلت بالموصل بحيث كان يصلى على 400 جنازة دفعة واحدة
الحجاز واليمن	452 هـــ / 1060 م	1400وفاة
بغداد	633هـــ /1236 م	كان عظيما جدا
الطاعون العام	749 هـــ/ 1349	نصف العالم أو أكثر منه(تقدير أبي حجلة)[18]

[15] - عبد الحميد حدوش، الهدر الديموغرافي في العالم الإسلامي: وسائله وحصيلته من خلال "أقوال المطاعين في الطعـــن والطواعين، للعربي المشرفي، رسالة مرقونة،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة 2002، جميع الخانات التي بدون إحالة مأخوذة من هذا المرجع، ص27-37.

[16] - ابن الأثير(عز الدين أبي الحسين)، الكامل في التاريخ، المجلد الثاني، دار صادر بيروت، 1995 ص. 560

[17] - أقوال المطاعين. . . م. س. ص27 و 28.

[18] - نفس التقدير أورده مرعي بن يوسف المقديسي، كتاب تحقيق الظنون بأخبار الطاعون، ضمن مجمـــوع، الخزانـــة الوطنية الفرنسية، قسم المخطوطات الشرقية- Richelieu- باريس، رقم 2026. ص. 60 ، بينما تقـــدر الدراســـات الأوروبية حجم هدر الطاعون الأسود بالثلث أو الربع. انظر:

-Mollaret, H. Le cas de la peste Annales de démographie historiqué, Mouton, Paris- La Haye 1989 p. 10

ب- دراسة إحصائية لوثيرة الطواعين بالمشرق العربي ومخلفاتها الديموغرافية:

تردادات الطواعين ببلاد المشرق العربي

القرن الهجري	عدد التكرارات	النسبة المائوية
الأول	7	15.21
الثاني	7	15.21
الثالث	4	8.69
الرابع	3	6.52
الخامس	11	23.91
السادس	1	2.17
السابع	1	2.17
الثامن	3	6.52
التاسع	3	6.52
العاشر	6	13.04
المجموع	46	**100**

أقوال المطاعين. . . م. س. ص. 35

ما يستخلص من الجدول:

اجتاح المشرق الإسلامي 46 طاعونا في ظرف 10 قرون، متفاوتة في المدة والحدة. وعلينا أن نقدر مدى الخسائر التي كانت تلحق الساكنة. وفي الإحصاء المقارن الذي أنجزه بيرابين Biraben بين الغرب المسيحي والمشرق الإسلامي[19] في العصر الوسيط، وجد مجموع الموجات الطاعونية التي اجتاحت البلاد الإسلامية قد بلغت 18 موجة طاعونية، بينما لم تصل أروبا سوى11 موجة.

تراجعت نسبة الطواعين من 21، 15% خلال القرنين الأول والثاني الهجري / السابع والثامن الميلادي إلى ما يقرب من 6%.

[19]- Biraben, J. N, Les hommes et la pestes en France dans les pays méditerranées, Tome2,Mouton, Paris – Lahaye, 1979, tome 1, p. p. 27-32

شهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أعلى نسبة من الطواعين بالمشرق.

سجل القرنان السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي أدنى مستوى لحضور الطاعون مما يدفع إلى القول بأنها شكلت مرحلة تعويض جيدة للخسائر البشرية.

يعد القرن الثامن قرن أزمة وفاة بالمشرق، بل والعالم بفعل الطاعون العام الذي فقد فيه العالم الإسلامي نصف ساكنته حسب ابن حجلة.

نشطت الطواعين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين بالأخص في الشام ومصر.

يمكن تسجيل خمس ملاحظات حول تطور مجالية الطواعين ببلاد المشرق الإسلامي:

– يعتبر العراق المجال الذي نشطت فيه الطواعين خلال القرون الخمس الهجرية الأولى/12م.

– تكررت الطواعين في مصر بكثرة مابين القرنين 8 و10 الهجري/14 و16م. وكأنه تحول إلى بؤرة طاعونية.

– شكلت بلاد الشام مجالا خاضعا كلية للطاعون طيلة القرون العشر.

– من الصعب ضبط إيقاعات وباء الطاعون وإن حاولت بعض المصادر المغربية تحديد سقف زمني لدورية المرض نخص بالذكر منها على سبيل المثال، محمد حسن الوزان الذي لاحظ أن دورية الطاعون تأخذ مدى زمنيا يتراوح مابين عشر سنوات ،أوخمس عشرة سنة، أو خمس وعشرين سنة[20].لذلك أحصى الدكتور رونو L. Raunaud 24 طاعونا أصابت ساكنة المغرب ما بين سنتي 542 و1818م،تسربت من مصادر خارجية مختلفة:

– مرتان قدم الوباء من شبه الجزيرة الإيبيرية.

---

[20] - حسن الوزان: وصف إفريقيا،تعريب محمد الأخضر ومحمد حجي،منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الرباط1980، ج1،ص68.

– عشر مرات أتى الوباء من المشرق مارا بمصر، طرابلس، تونس، الجزائر فالمغرب.
– ثلاث مرات نقلت العدوى مباشرة من مصر بواسطة السفن.
– في الغالب ظهر الوباء بالمغرب مباشرة بعد عودة الحجاج[21].

ولعل أبرز الأوبئة التي كان لها مفعولا سلبيا على ديموغرافية المغرب طاعون نهاية القرن 18م.

3– هدر الطواعين بالمغرب خلال القرن 18م

إذا كان أثر الطاعون الديموغرافي قد زال أو في طريق الاختفاء في أوربا الغربية، ابتداء من العقد الثالث من القرن 18م، فإن كل ما حدث بالعالم العربي أن تراجعت تكرارات الموجات الطاعونية وتباعدت وتائرها بدون أن تخف حدتها.

لقد كانت الساكنة المغرب على موعد مع الطاعون في مرتين في منتصفه والثالثة في نهاته، فما هي خلاصة مفعولها الديوغرافي؟ وإلى أي حد ساهمت في عرقلة الانتقال الديموغرافي؟

أ– مصادرومجالية الوباء

بما أن المصادر المغربية أغفلت المسالك التي تسربت منها الأمراض الوبائية، وبالأخص طاعون 1799م بحيث لا يجد الباحث بدا من الالتجاء إلى مراسلات القناصل الأروبين الذين كانوا بالمغرب، أو الكتابات الأجنبية التي استغلت تلك المراسلات قصد الإجابة عن بعض الأسئلة من قبيل: هل الطاعون الذي أصاب المغرب سنة 1799م وافد أم متفجر من بؤر داخلية؟ وما هو حجم الهدر الناتج عنه؟ وهو الأمر سيركز عليه التحليل الآتي.

21 - Remblinger ،la peste au Maroc. Directeur de l’institut Pasteur Marocain, Revue d’hygiène et de police sanitaire,1913 , p. 11

– مسالك تسرب الطاعون: الطريق البري والطريق البحري

يمكن التمييز داخل مجموعة مؤرخي الأوبئة بالمغرب بين اتجاهين: صنف يؤكد على دور المسلك البري وآخر يرجح أهمية البوابة البحرية.[22].

– تسرب الطاعون إلى المغرب عبر الحدود البرية:

ينطلق رينو L. Raunaud من الخلاصات الثلاث التي توصل لها كاتب المجلس الصحي الأعلى سوجور دي بريون M. Segur Duperyon الذي قام بدراسة مركزة لخصوصيات أوبئة شمال إفريقيا خلال القرن18م.

- لا يظهر الطاعون إلا إذا كان متفشيا بمصر
- يدخل الطاعون إلى المغرب متنقلا من تونس إلى الجزائر

إن طاعون 1799 وما سبقه من الأوبئة كلها انتقلت إلى المغرب عبر التراب الجزائري وما يعزز هذه الخلاصات الدالة على دور الطريق البري في تسرب الوباء الملاحظات التالية: إن طاعون 1799 أعلن عن بدايته بفاس ومنها تفشت عدواه، بينما لم تشكل طنجة وتطوان سوى آخر محطاته كما يتبين من مسار الطاعون[23].

مراحل انتشار طاعون 1799

الشهر	المجال المطعون
أبريل – ماي	**فاس – الرباط**
يونيو– يوليوز	الريف – مكناس – سلا – دكالة – عبده – مراكش
غشت – شتنبر	مازغان – آسفي – موغادور – تارودانت وبقية سوس
نونبر – دجنبر	تطوان – طنجة

RENAUD. La peste de 1799 Hesperis,Tamuda، VOL. 1 ،1921 ،p. 170

[22] Biraben(J. N), Les routes maritimes des grandes épidémies au moyen –âge, in l'homme, la santé et la mer, Paris 1997, p. 27.

. كلاسيكيا، كان الطاعون يتسرب إلى داخل أوروبا عبر البر، انطلاقا من الموانئ الأطلسية بسرعة ثابتة، أولا من الجنوب إلى الشمال ثم من الغرب إلى الشرق وكلما تعمقنا في التحليل يتضح أن مجالية الطاعون معقدة، ولتبسيط المشكلة يتطلب الأمر تجزيئها إلى ثمانية مراحل يتعاقب فيها الطريقان البري والبحري" .

[23] -Renaud (H. P. J), La peste de 1799 au Maroc, in Hesperis, 1921, p. 167.

إن الطاعون قبل أن يصل إلى المغرب كان قد أعلن عنه في تونس ومدينة الجزائر عام 1796م، نشأ عن عدوى نقلها شخص سمي " ابن سماية " قدم على ظهر مركب من أرض الروم ."[24]

و إذ كانت ساكنة المغرب مهددة بأوبئة الحدود الشرقية فإنها ظلت تعاني من أوبئة المحاور التجارية الجنوبية، بحيث كانت العدوى تنتقل عبر القوافل الصحراوية وسلع السودان من البؤرة الطاعونية الممتدة من واحات تونس إلى غرب إفريقيا بما فيها البؤرة الممتدة ما بين سواحل كلميم إلى سواحل موريتانيا. فهل بالفعل وجدت بالمغرب بؤر طاعونية؟

– مصدر طاعون 1799 مخارجي أم داخلي؟

لا تحسم الكتابات المهتمة بطواعين المغرب خلال القرن 18م في مسألة مصدر الطاعون. هل له بؤرة داخلية يتفجر منها دوريا؟ أم هو وباء وافد؟

من المبررات التي علل بها الدكتور رينو Raynaud حينما عجز عن حل هذا الإشكال، وعدم التوصل إلى إجابة دقيقة:

الخلط الوارد في الكتابات العربية ما بين مفهومي الوباء والطاعون.

انعدام الوثائق الطبية.

لكن بالنسبة لطاعون 1799 شكلت مشاهدات القنصل الإنجليزي جاكسون Jackson عنصرا إيجابيا ساعدت على الإمساك بالمصدر الخارجي له: ذلك أن الطاعون كان موجودا بتونس 1784 وبمدينة الجزائر 1797 وبإقليم وهران وتلمسان ربيع 1799م.

أي أنه أصبح على مشارف المغرب الشرقي، ينضاف إلى ذلك العلاقة الدائمة ما بين المغرب ومصر بحكم منسك الحج. وهذا ما يثبت أن العوامل الخارجية هي المفسرة وأن الطاعون قد تسرب إلى المغرب قادما من بعيد.

---

[24]– عبد الرحمان بن محمد الجلالي، تاريخ الجزائر العام،دار الثقافة، بيروت ،1980،ج. 3 ص. 262– 263.

كما أن الكتابات الإخبارية المغربية لم تشر إلى أي طاعون في الفترة الممتدة ما بين 1163هـ/1750م و 1212هـ/ 1798م. ولا تساعد في الإجابة عن السؤال هل الطاعون وافد؟ وإذا كان وافدا من أي بوابة دخل ؟

-الطاعون وافد من البحر

ما يستخلص من التعابير المستعملة في المصادر المغربية المعاصرة أنها تؤكد على كون الطاعون وافد، لكن دون أن تحدد بوابة دخوله، فصاحب الجيش العرمرم كتب يقول:"وفي هذا العام [1213هـ/1799م] دخل الطاعون للمغرب وهم الحواضر والبوادي ولما كثر بمراكش رجع السلطان لمكناسه "[25] بينما قال الضعيف كلمة" فشا في المغرب وفي سوس "[26].

ب- حصيلة الوباء

وفيات طاعون1799م بالأرقام في بعض جهات المغرب:

المدينة أو المجال القروي	معدل عدد الضحايا في اليوم	عدد الوفيات الإجمالي	عدد السكان	% الوفيات
فاس	1200 إلى 1500	65000	120000 عام 1799	54,16
مراكش	1000	50000	60000 عام 1800	83,33
أسفي	28	5000	12000 عام 1852	41,66
تارودانت	800	-	-	-
نواحي حاحا	-	493	500	98,6
قرية الدويبات (موغادور)	-	100	133	75,18

Renaud، La peste de 1799 …op ، .cit, p.p170-173

[25]- الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، لمحمد بن أحمد أكنسوس، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي. ج. 1 ص. 281.

[26]- الضعيف. . . م. س. ، ج. 1ص. 273.

يقوم الجدول أعلاه على مادة إحصائية مستقاة من القنصل الإنجليـــزي جاكـــسون الذي عاصر الوباء، لكن معطياته مشكوك في صدقيتها فهي مهولة وتثير الفزع سيما إذا طبقنا عليها سلم دوباكيي Dupaquier[27] فتعادل درجتها حجم كارثة وهي أعلى درجة في السلم. بيد أن مدنا كفاس ومراكش التي فقدت مابين النصف وأربعة أخماس، وهو أمـــر مستبعد وتفنده الوقائع التاريخية. لقد استمرت المدينتان في أداء وظائفهـــا الاقتـــصادية والسياسية، ففي 1799م"حرك مولاي سليمان لأرض مراكش".[28]

وعلى سبيل المقارنة قدر الأرشيف البرتغالي وفيات الحواضر الكبرى والـــصغرى في الثلث[29]

ولعل تقدير القنصل الفرنسي كييت(GUILLET) أقرب إلى الصحة إذ حصر عـــدد الوفيات العامة في 100000 ضحية[30] وهو يعني أن نوع الأزمة على الصعيد الوطني مـــن الحجم الصغير حسب سلم دوباكيي.[31] بينما محليا وجهويا يكون حجم الأزمة أقـــوى، ويصل إلى درجة كارثة وهو ماتزكيه مصادرنا ، لقد أصدر صاحب الابتـــسام[32] أثنـــاء تقويمه لحدة هدر طاعون 1818 حكما مطابقا للقياس الذي توصلنا إليه.

---

[27]– مقياس وظف للتحليل الإحصائي للوفاة يتكون من 6 درجات انظر:

Dupaquier (Jaques) ،les grandes mortalitésé étude méthodologique des crises démographiques du pasée, ordina edition ،Liege1979. p. 83.

[28]– الفشتالي (عبد السلام)، تقييد في وباء 1213، ضمن مجموع، خ. ع.، الرباط ، رقم د283 ورقة 125.

[29] - الأرشيف البرتغالي لتاريخ المجاعات والأوبئة في المغرب...م.س.،ص300.

[30] –Caille, Jacque, LE consulat de Tanger des origines à 1830, Edition A. Pedone, Paris1967 , p. 43

[31]– قدر دوبويي عدد سكان بالمغرب سنة 1805 في قرابة 5.780.000نسمة، قتل منها الطاعون 100000، نسبة الهـــدر هي1 % 73.وهو ما يعادل أزمة متواضعة حسب مقياس لاجوس مادي.

- Arch. Af. Etr. , Mémoires et documents volume 1, Maroc. 1533 à 1805
Memoire sur le royaume du Maroc, par M. de Pouilly .1805
Etat topographique du royaume du Maroc-1805, Folio340-341

[32] - أبوالعلاء ادريس، الابتسام عن دولة ابن هشام، م .خ .ح، الرباط رقم، ز12490، ص.6 "وقوع الطاعون الأول في سنة اثنى عشر ومائتين وكان موتا ذريعا كاد أن يفضي إلى الفناء، وعم جميع أقاليم المغرب. والثاني كان في ســـنة أربع وثلاثين ومائتين وهذا كان أخف من الذي قبله."

خلاصة

– يتأكد مما سبق المفعول السلبي للأمراض الوبائية عامة: الطاعون قديما والكوليرا حديثا، على ديموغرافية المغرب.

– من المؤكد أن النزيف الديموغرافي للطاعون ممثل في وفاة عوامل الإنتاج أثر بقوة على القطاعات الإنتاجية، وأضر أو شل أحيانا علاقات المغرب الخارجية.

– ما هو ثابت أن بعد كل أزمة ديموغرافية، إلا ويحصل انتقال جديد شرعي للثروات، وانسياب للأموال، واصطفاف اجتماعي جديد[33].

– كان الطاعون يصيب الشباب والأقوياء أولا ثم النساء فالأطفال وأخيرا الشيوخ.

لكن في الحقيقة أن عينة الوفاة تختلف باختلاف الكتابات كما يتضح من المثالين التاليين:

"إن الوباء ... قتال في الأكثر للرجال ويخلي الربوع والبلدان "[34]، "والموت يساوي بين الكبير والصغير والحقير والجليل".[35].

---

[33]– بروديل – فرناند، الحضارة المادية والاقتصاد الرأسمالي من القرن 15م حتى القرن 18م، ترجمة مصطفى ماهر، دار الفكر، القاهرة 1993، ص98 : يقول جان بول سارتر :" إن الطاعون لا يتصرف إلا كتصعيد هائل للعلاقات الطبقية: إنه يصيب البؤساء ويترك الأغنياء ".

– من الخلاصات التي توصل إليها J. Rufié et J. Ch. Sournia في مؤلفهما :

–**Naso,Irma**, les hommes et les épidémies dans l Italie de la fin du moyen age les réactions et les moyen de défenses entre peur et méfiance. In maladie et société ,Actes du colloque de Bielefled, C.N.R.S,Paris1989 , p. 104

" تغير ملاكو الأراضي، المنازل المتاجر، اننا نحضر تركيز وتجميع للثروات. احتفت النخبة في المدن وعوضتها نخب وافدة من مناطق أخرى، ومن شرائح اجتماعية جديدة ففي طوسكانيا بدأ صعود آل ميدتشي(Les Medecis).

[34] - ابن أبي العاص محمد، رسالة في تحقيق الوبا، قسم المخطوطات الشرقية لاخزانة الوطنية، باريس، رقم 3027. ورقة رقم 1.

[35] -كتاب تحقيق الظنون بأخبار الطاعون، ...م.س..**ورقة** 3.

خلاصة عامة:

سوف أختم مداخلتي بخلاصتين أساسيتين: الأولى تهم مسألة المنهج في الديموغرافية التاريخية والثانية تلخص معوقات الانتقال الديموغرفي في المغرب.

1- صعوبة تلمس معوقات تأخر الانتقال الديموغرافي في المصادر.

لعل الحديث عن ديموغرافية المغرب (ومن خلاله العالم العربي) عبر التاريخ، وعن العوامل التي تحكمت في سيرورتها، تلقي بالباحث في الديموغرفيا التاريخية إلى الاصطدام بالعوامل الهدامة للساكنة أكثر، من أن تسعفه على ضبط الشروط التي أدت إلى نمو وتكاثر تلك الساكنة، أو يحصل على معلومات كافية عن المتغيرات الديموغرافية الأساسية كالزواج والخصوبة والولادات ... وإذا كانت المصادر المغربية لا تعدم من الإشارات الدالة على الهدر الديموغرافي سواء منها السياسية العسكرية أو ما تخلفه المجاعات والأوبئة كأسباب مباشرة للانهيار الديموغرافي في العالم العربي عامة والمغرب خاصة. فإنها ركزت وشددت على المفعول السلبي للأوبئة بالمغرب عبر مختلف الأحقاب،لذلك نال الطاعون باعتباره المرض المسؤول عن هدر العالم العربي اهتمام اللغويين والأطباء والفقهاء، حيث عرفوه وميزوه عن الوباء وعددوا أصنافه وبحثوا عن أسبابه وعوامله البشرية والدينية.

2- مستوى حصيلة هدر عوامل الوفاة الثلاث:

لم يكن مفعول الكوارث الطبيعية في الساكنة بنفس الدرجة على أن ما كان له حضور بارز هو ثلاثي الموت: الأمراض الوبائية، أزمة الأقوات، الحروب، ومع ذلك يمكن القول:

- خلفت تلك العوامل أزمات وفاة دورية حالت دون توفر العنصر البشري الكافي والشرط الأساسي لإنجاز التحولات الاقتصادية والتقنية، من منطلق أن دورية الوفاة لم تسمح بوفرة العنصر البشري بالقدر اللازم من جهة للابتكار والاختراع والتسيير، علما

أن وفيات الطواعين شملت النخبة العالمة والحاكمة والمنتجة، ومن جهة أخرى حالت دون تكون سوق استهلاكية واسعة.

ومن ثمة يمكن القول، إن المجاعات والأمراض والأوبئة وغيرها من الكوارث، شكلت عنصرا كرس ركود البنيات الاقتصادية والسياسية، وحكم على هياكله بالثبات.

وإذا وسعنا زاوية الرؤيا، تعتبر تلك عوامل الهدر بمثابة مظاهر لآلية اشتغال النظام الديموغرافي القديم، الذي أطر المجتمعات العربية والغربية إلى أواخر القرن 18م، فبمجرد أن تحررت منه الساكنة الغربية حتى دخلت مرحلة التحولات الكبرى على جميع الأصعدة، بينما عجزت بقية أجزاء العالم ومن ضمنها العالم العربي على خلق بنية بديلة متقدمة، لا لشيء سوى أنه ظلت حبيسة الكوابح المالتوسية وأزمات الوفاة الدورية والتي لن تتحرر منها إلا ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وباختصار، شهد المغرب خلال القرن 18م :خمس مجاعات، طاعونين الأول في المنتصف والثاني في نهاته، وحربا داخلية دامت ثلاثون سنة وهو القرن الذي اجتمعت فيه عوامل الهدر الديموغرافية الثلاث.وبذلك من الطبيعي أن تنعدم شروط الإقلاع الديموغرفي.